

## من النص التاريخي إلى نص المؤرخ

عبد الواحد بنعجيبية  
مفتش منسق جهوي لمادة الاجتماعيات  
أكاديمية جهة طنجة - تطوان  
[ben-ajiba1@hotmail.com](mailto:ben-ajiba1@hotmail.com)

**ملخص:** بالنظر إلى بعض الصعوبات التي يجدها المدرس في تصنيف النصوص في مادة التاريخ بحكم عدم وجود مرجعية إستمائية، تظل هذه المقالة إسهامة أولية تضع بين أيدي المدرسين مرجعية يمكن الاستناد إليها عند تدريس النص، خاصة على مستوى التصنيف، ومعرفة الغرض التاريخي من وراء ذلك. انطلق المقال من ملامسة لمفهوم النص عموما، ثم التساؤل عن مفهوم "النص التاريخي" وعلاقته بالنصوص الأخرى، لينتهي باقتراح منهجي حول تصنيف النصوص في مادة التاريخ.

**الكلمات المفتاحية:** النص، النص التاريخي، التصنيف النوعي، الوثيقة المكتوبة، منهجية التحليل.

**Résumé:** L'enseignant d'histoire ne dispose pas d'un référentiel didactique lui permettant de bien classer ses « textes historiques ». Ce document a pour but deux soucis majeurs : le premier est de clarifier aux enseignants de la matière le parcours historique de la méthodologie d'analyse des textes historiques ; le point de départ était d'interroger les concepts « texte », « texte historique », « textes non historiques ». Le deuxième souci était de proposer une « typologie » des textes historiques pertinentes par rapport aux objectifs de la leçon d'histoire.

**Mots clés:** texte - texte historique - typologie - document écrit - méthodologie d'analyse.

## في سبيل البدء

القديمة لتحليل النصوص والمطالبة بمعانقة مفاهيم وأدوات جديدة للقراءة والتأويل والاشتغال على أنواع الخطابات. وفيما يلي بعض التحديدات المفهومية لبعض الباحثين الذين تبنا هذا التناهج في التعامل مع النص.

أولها نجده عند ج. كريستيفا والتي تعرف النص بأنه «جهاز عبر لغوي يعيد توزيع نظام اللغة بكشف العلاقة بين الكلمات التواصلية مشيرا إلى بيانات مباشرة تربطها بأنماط مختلفة من الأقوال السابقة والمتزامنة معها».<sup>3</sup>

ثانيها يقترحها بارث وهو عبارة عن تصور تفكيكي تقتطف منه ما يلي:

- النص قوة متحولة تتجاوز جميع الأجناس والمراتب المتعارف عليها لتصبح واقعا نقيضا يقاوم الحدود وقواعد المعقول والمفهوم.

- النص يتكون من نقول متضمنة وإشارات وأصداء للغات أخرى وثقافات عديدة تكتمل فيه خريطة التعدد الدلالي، وهو لا يجيب على الحقيقة وإنما يتبدد إزاءها.

- النص مفتوح ينتجه القارئ في عملية مشاركة لا مجرد استهلاك، هذه المشاركة لا تتضمن قطعة بين البنية والقراءة... فممارسة القراءة إسهام في التأليف.<sup>4</sup>

أما دريدا فيعتبر النص لعبة منغلقة في آن واحد مما يجعل من المستحيل لديه القيام بجنيولوجيا بسيطة لنص ما من أجل توضيح مولده، فالنص لا يملك أبا واحدا ولا جذرا واحدا بل هو نسق من الجذور.<sup>5</sup>

ونختم هذه التحديدات بما نجده عند بول ريكور الذي يقترح «لنطلق كلمة نص على كل خطاب تم تثبيته بواسطة الكتابة».<sup>6</sup>

قد يبدو للذين لا يعتقدون في مفهوم التناهج أن التحديدات السابقة للنص لا تفيدنا في شيء بغية إمطة اللثام عن مفهوم النص «التاريخي» ما دامت مستقاة من

إذا كانت المواد الدراسية (اللغات، الفلسفة...) تتساءل عن نصوصها وتُسائلُها، فإن مادة التاريخ لا تستحضر ذلك إلا في حدود بيداغوجية ولا تتعداها إلى ما هو إبستيمولوجي، وهو ما يجعل المدرس حينما يتساءل مع متعلميه عن ماهية هذا النص لا يسلك - في الغالب الأعم - مسالك سهلة واتجاهات واضحة.

تهدف هذه المقالة إلى ملامسة هذه المسألة، من قبيل ماهية النص التاريخي؟<sup>1</sup> ما علاقة النص «التاريخي» بالنصوص الأخرى «غير التاريخية»؟ ما الذي يجعل نصا ما نصا «تاريخيا»؟ ما هو التصنيف الذي يسلكه مدرس مادة الاجتماعيات؟

انطلقت الإجابة على هذه الأسئلة أولا من إطلالة على بعض التحديدات التي قاربت النص كمفهوم لتصل إلى محاولة تقديم تحديدات للنص الذي يصطلح عليه بالنص التاريخي، وذلك من خلال حديث مركز عن تطور منهجية المؤرخ في تعامله مع نصوصه وإبراز أهم المنعرجات في هذا التطور.

## في سبيل تعريف للنص

إن محاولة القبض على مفهوم حصري للنص مسألة استعصى على الباحثين القيام بها بسهولة، فكل ما هو متاح في هذا الباب هو تقديم تصورات تركيبية للمفهوم، وهذا أمر مفهوم بحكم أن النص بطبيعته يأبى أن يتأثت في إطار تعاريف سكونية قطعية، وللدلالة على ذلك نشير إلى أنه حينما أرادت إحدى الباحثات الإجابة عن مفهوم النص كلفها ذلك كتابا زادت صفحاته عن ثلاثمائة صفحة.<sup>2</sup>

لقد أدى تطور البحث في مجال العلوم الإنسانية إلى الحديث عن «علم النص» الذي دعا إلى قطعية مع المنهجية

ما المقصود حينما نعت نصا ما بالتاريخي؟ هل جميع النصوص يمكن لها أن تصبح كذلك؟ وما الذي يسمح لها بذلك: شكلها أو مضمونها؟ أو هما معا؟ منتج هذه النصوص أم متلقيها؟ أو هما معا؟ وأخيرا هل ينطبق على هذا النص الذي ينعت بالتاريخي بعض الخصائص والمميزات الواردة في التحديدات التي سقناها في البداية حول مفهوم النص عموما؟

### من النص التاريخي إلى نص المؤرخ/المتلقي:

علاقة المؤرخ بالنصوص المكتوبة هي بمثابة تطور علاقة المنهج الذي يعتمد مع مناهج البحث في مختلف مجالات البحث الإنساني، علاقة تأثير وتأثر. فمسيرة التعامل النقدي مع النصوص «التاريخية» هي نتاج عمل منهجي شاق وطويل وضعت لبناته الأولى من قبل مؤرخين قدامى، وما زالت عملية تشييده تتم على أيدي مؤرخين معاصرين لا يملون من الاحتكاك بمناهج بحث جديدة ومتجددة.

ففي العصر اليوناني كان المؤرخون يعتمدون نصوصا مكتوبة، غير أنهم لم يتعاملوا معها بنوع من الصرامة النقدية، ولذلك اختلطت كتاباتهم بالأساطير والوقائع الخيالية. ولا يمكن لأحد أن ينكر جهود المؤرخين المسلمين في اعتماد نصوص جديدة ونقدها، حتى ولو اقتصر هذا النقد على أمانة الشهود تأثرا بمنهجية جامعي الحديث.<sup>8</sup>

يصعب علينا أن نتبع خطيا مسيرة هذه العلاقة الجدلية، فالزمن الفكري له وتيرته الخاصة ويستحيل تتبعه وفق منظور الما بعد والما قبل. فخلال القرن التاسع عشر الميلادي شهد الفكر الإنساني عموما ثورة لم يسبق لها مثيل في القرون السابقة،<sup>9</sup> فكان لابد أن تنفعل منهجية البحث التاريخي بهذه الثورة وتنفعل فيها، لتظهر بالتالي الحاجة إلى نوعية جديدة من النصوص فرضت أشكالا جديدة للتعامل معها وقراءتها.

بناء على ما سبق يمكن القول أن القرن 19 الميلادي وفر

اهتمامات «أدبية». يظل الأمر مقبولا إذا ما أخذنا بالطرح البلاغي الكلاسيكي وتصنيفاته للإنتاجات الفكرية. غير أن هذه النظرة أصبحت منذ زمن ليس بالبعيد متجاوزة بحكم أنها تبقى عاجزة عن استيعاب هذه النصوص وتصنيفها، فالنص يظل دوما طاقة ينتظر من يفجرها، وهو ضد الموت وهو أفق وليس نفقا.

لعل هذا ما دفع أولئك الذين يحسبون على المجال الأدبي (بارث) والذين سقنا بعض مقارباتهم للنص، يقترحون بدل العمل الأدبي كلمة «نص»، بل إن البعض منهم جرب أدوات تحليل الخطاب على نصوص تاريخية إغريقية وخلص إلى أن الخطاب التاريخي الكلاسيكي يفتقد إلى ملاءمة شكلية يمكن أن يتميز بها عن السرد الخيالي.<sup>7</sup>

إن إشكالية تحديد أنواع الخطاب شغلت بال المفكرين قديما وما زالت، ويكاد الاتفاق ينحصر حول ضرورة طرح التصنيفات الكلاسيكية للنصوص، والتي استقت معاييرها من مفهوم أنظمة الأنواع الذي تبنته العلوم الطبيعية، واستبدالها بتاريخية الأنواع. فالنص ينتظر دوما من يبحث معانيه المتجددة باستمرار، وأن تصنيفه ضمن قوالب جاهزة يجرمه من معانقة نصوص أخرى. أليست هذه الرؤية الجديدة هي التي كانت وراء استكشاف المؤرخين المعاصرين لنصوص لم تكن تحظى باهتمام نظرائهم في الماضي القريب؟

يستحسن أن تصنف النصوص حسب معيار المتلقي، فخصائص المتلقي واهتمامه لها أهميتها في تأليف النص، كما أشارت إلى ذلك بعض التحديدات السابقة لمفهوم النص. ألا يقتضي التوصل إلى الوقائع والأحداث التاريخية عبور الوثيقة المكتوبة؟ هذا العبور لا يتم ولن يتم إلا عبر اللغة، ومن لا يملك سر تفكيك هذه اللغة التي ثبت بها النص سيبقى عاجزا عن إعطاء فهم مقنع للتاريخ الإنساني المركب.

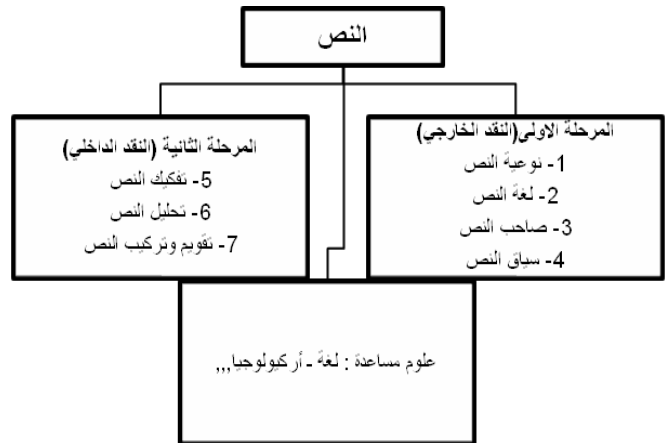
بعد هذه الإطالة المقتضبة على مفهوم النص، نتساءل

تلاقح مناهج البحث في العلوم الإنسانية.

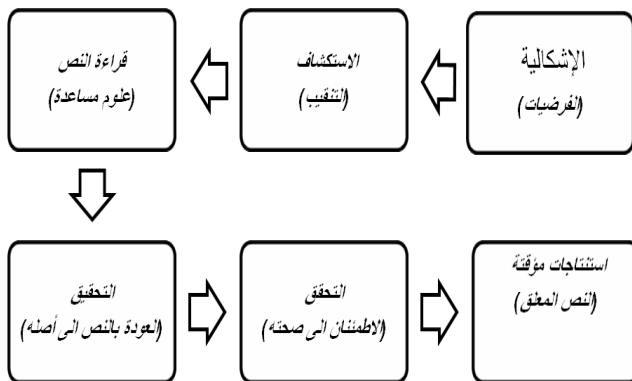
اتسع مفهوم النص باتساع مفهوم التاريخ، اضطر معه الباحث المتخصص إلى سبر غور مجاهل جديدة خصوصا بعدما تقزمت المناهج في دائرة اختصاصاتها وعجزت عن فهم الكائن البشري المتعدد الأبعاد، وعليه لم يعد المعنى متضمنا مسبقا في النص، وإنما نتيجة استكشاف مستمر، مبني على إشكاليات وفرضيات.

وفق هذا المنظور الجديد، تم استكشاف نصوص تقليدية اعتقد أنه قيل فيها القول الفصل، فضلا عن توظيف نصوص لم تكن في حساب المؤرخ؛ وذلك حينما ربط في معالجتها بين المستوى اللساني والتاريخي، بحيث تأكد لديه أن الوقوف عند المستوى الأول يساعد على استشكال النص والقيام بحفريات حقيقية والتي يحجبها كيد النص، ويحول دون الوصول إليها ذلك التمييز العقيم بين شكل النص ومضمونه.<sup>12</sup> إن النص الأدبي مثلا لا يعقل أن يكتب دون أن يكون التاريخ حاضرا فيه، غير أن وساطة الشكل تحول دون أن يكون هذا النص انعكاسا خالصا للمجتمع.<sup>13</sup> فاللغة تحتفظ في حالات نادرة بآثار الحدث التاريخي وعندها تقدم للمؤرخ خدمة عظيمة.<sup>14</sup> هكذا إذن أثمرت عملية التناهج بروز مظهر ثان لمعالجة النصوص يمكن اختزالها في الشكل التالي:

الشروط الكاملة للاحتفاظ بالوثائق المكتوبة والاعتماد عليها وحدها للكشف عن الماضي «لا تاريخ بدون وثائق». فقبل هذا القرن كان المؤرخ يقدس مضمون الشهادة وليس الشهادة نفسها، أما خلال هذا القرن فقد اكتشف المؤرخ قدسية الوثيقة،<sup>10</sup> وأصبح المؤرخ الوضعي يولي أهمية بالغة للوثيقة المكتوبة،<sup>11</sup> وقد ساد الاعتقاد لدى المتحمسين منهم لمنهجية العلوم الطبيعية «المدرسة المنهجية» أن منهجيتهم يمكن أن ترقى إلى مستوى هذه العلوم إذا ما اتبع المؤرخ الخطوات المبينة في الخطة التالية:



تغيرت النظرة إلى التاريخ بعد هذا القرن بسبب ما شهدته البشرية من تقلبات عميقة في سيرورتها فكان لا بد أن تتغير النظرة إلى النص «التاريخي» ومستويات تأويله، فالنصوص التي كانت في الغالب ذات أبعاد أحادية، سياسية ودينية في الغالب، أو كما عرفت لدى البعض بـ «النصوص الرسمية»، تركت المجال لنصوص من طينة مغايرة فرضت على المؤرخ التسليح بمناهج علوم أخرى. ولنا في تطور البحث في منهجية تاريخ المغرب مثال ساطع، فتوظيف النوازل كنصوص «فقهيّة» أضاءت تاريخ المجتمع المغربي في مرحلة السبعينات، وذلك حينما توفر لدى الباحثين رصيد منهجي أفاد من



الاجتماعيات، وإنما يتم الحديث عن جميع النصوص التي يتعاملون معها سواء في مادة التاريخ أو الجغرافيا أو التربية على المواطنة من خلال تدابير ومواصفات ديداكتيكية يجب مراعاتها عند الاستثمار. ومن ضمن هذه التدابير نقرأ في **كتيب التوجيهات التربوية للسلك التأهيلي**<sup>15</sup> تحديد نوعية النص التي أدمجت مع الإطار الزمني والمكاني. هذا السؤال وإن كان لا يرد في **التوجيهات التربوية للسلك الإعدادي** غير أننا نجده يرد أكثر من مرة في الأسئلة المقترحة في معالجة النصوص بالكتب المدرسية المقررة.

غير أنه تبين لنا من خلال الزيارات الصفية أن معظم المدرسين لا يرتكزون إلى مرجعية منسجمة في تصنيف النصوص الموظفة من قبلهم (النوعية)، بل إن الكثير منهم حينما يتساءل مع متعلميهم عن نوعية هذه النصوص إنما يكتفون بأنها نصوص تاريخية وكفى، علما أن التاريخ يوظف عدة أنواع من النصوص التي يمكن أن تضفي التاريخ البشري في مظهراته.

نشير إلى أن مادة اللغة العربية ونظيرتها الفرنسية تصنفان نصوصهما حسب النوعية إلى نصوص سردية أو حجاجية أو وصفية. وعليه يستحسن أن يكون لمدرس الاجتماعيات تصنيف يتلاءم وطبيعة مادة التاريخ وأن يعي الهدف المتوخى من التساؤل مع المتعلمين حول هذه النوعية.

نقترح كإسهام في تبديد هذا الغموض أن يكون المدرس على بينة من تصنيفات النص في المواد الأخرى ويتبين ذلك مع متعلميه لتصحيح التمثيلات، وأن يوضح لهم الغاية من وراء التساؤل عن نوعية النص التاريخي وذلك على النحو التالي:<sup>16</sup>

إن الغرض من وراء التساؤل حول نوعية وطبيعة هذه النصوص يجب أن تبرز للمتعلم أن صناعة المؤرخ قد تطورت مع تطور الفكر التاريخي، وأن مجال دراسة التاريخ مفتوح على شتى مناحي الحياة الإنسانية.

يستنتج، وخلافا للطريقة الأولى، أن منطلق التحليل هنا ليس النص، بل أسئلة المؤرخ التي تستدعيه وتستنتقه؛ وذلك عبر عملية التحقيق التي تسمح بربط هذا النص بجذوره التي أنتجته (سياق)، ثم بعد ذلك تأتي العملية الثانية المتمثلة في التحقق أي الاطمئنان المؤقت لصحته (الاستنتاجات المفتوحة).

نعود بعد تبين تطور منهجية المؤرخ في التعامل مع النصوص إلى التساؤلات التي دشنا بها هذه الورقة حول ماهية النص التاريخي، لنخلص إلى أن ما يجعل نصا ما تاريخيا هو عمل المؤرخ. وبهذا المعنى يظل النص التاريخي في نهاية التحليل خطابا مكتوبا يشغل اللغة وتسمح إمكانية نقده من قبل المؤرخ بالتوصل إلى مضمون وقائعي حول تطور المجتمعات البشرية.

وتأسيسا على ذلك يلتقي النص التاريخي في سماته مع التعاريف السابقة من حيث كونه:

- خطابا مثبتا بواسطة اللغة؛
- لغة حاملة لمضمون خفي أو ظاهر، يجب استكشافه عبر هذه اللغة؛
- تفاعلا مستمرا ودائما بين المنتج والمتلقي؛
- يبقى دوما مفتوحا للنقد والحوار بفضل تعدد وتطور القراءات.

### تصنيف مقترح لتصنيف النصوص في مادة التاريخ:

لا يهدف هذا الجزء إلى اقتراح منهجية لتحليل النصوص التاريخية أثناء الممارسة الفصلية، بقدر ما يهدف إلى تمكين المدرسين من مرجعية متوافق عليها عند الإجابة على سؤال: ما هي نوعية النصوص المستثمرة سواء أثناء التدبير الديداكتيكي للأنشطة أو أثناء التقييم؟

لا تفرد التوجيهات التربوية الحديث عن النص التاريخي بمعزل عن النصوص الأخرى الموظفة من قبل مدرسي مادة

طبيعة مضمون النصوص	نوعية النصوص
<ul style="list-style-type: none"> <li>✓ فكرية</li> <li>✓ دينية</li> <li>✓ اقتصادية</li> <li>✓ اجتماعية</li> <li>✓ سياسية</li> </ul>	<ul style="list-style-type: none"> <li>✓ وثيقة دبلوماسية</li> <li>✓ خطبة</li> <li>✓ رسالة</li> <li>✓ مذكرات</li> <li>✓ تقارير</li> <li>✓ شهادات مكتوبة</li> <li>✓ مقالات صحفية</li> <li>✓ كتب سماوية</li> <li>✓ سجلات</li> <li>✓ تقييدات</li> <li>✓ مصادر تاريخية</li> <li>✓ دراسات تاريخية</li> <li>✓ اشعار</li> <li>✓ أحاديث نبوية</li> </ul>

## الهوامش:

- 1- يقصد هنا بالنص التاريخي الوثيقة المكتوبة المعتمدة من قبل المؤرخ، او مايسميه العروى بالتاريخ بالعهد.
- 2- العيد، يمني. (1983). *في معرفة النص*، بيروت: دار الأفاق.
- 3- فضل، صلاح، (1992). *بلاغة الخطاب وعلم النص*، الكويت: عالم المعرفة، عدد: 164، ص. 212.
- 4- المرجع نفسه، صص. 214-213.
- 5- المرجع نفسه، ص. 220.
- 6- المرجع نفسه ص. 219.
- 7- Meziane, ALLAL. (1992). «Le discours historique selon R. Barthes», in *Histoire et linguistique*, coordonné par Abdel Ahad Sebti, Rabat: Publications de la Faculté des Lettres, p :22
- 8- العروى، عبد الله. (1992). *مفهوم التاريخ*، ج:1، البيضاء: المركز الثقافي العربي، ص. 208.
- 9- هنري، أليكن. (1982). *عصر الإيديولوجيا*، بيروت: دار الطليعة، ط. 2، ص. 9.
- 10- العروى، عبد الله. المرجع السابق، صص. 114-115.
- 11- الحسنوي، عبد الرحيم. (2011). *النص التاريخي*، البيضاء: إفريقيا الشرق، ص. 36.
- 12- السبتى، عبد الأحد. (1992). *تقديم، التاريخ واللسانيات*، تنسيق عبد الأحد السبتى، الرباط: منشورات كلية الآداب، رقم: 20، ص. 9.
- 13- *مجلة الموقف*. (1987). «حوار مع بارث»، العدد 2، الرباط، ص. 102.
- 14- العروى، عبد الله. مرجع سابق، ص. 104.
- 15- وزارة التربية الوطنية: *التوجيهات التربوية لمادة التاريخ والجغرافيا السلك التأهيلي* (2007)، ص. 31.
- 16- انظر مقترح آخر للتصنيف في كتاب الحسنوي عبد الرحيم (2011). مرجع سابق، ص. 78.